مواجهة قطز للخطر المغولي في مصر

obeikandl.com

obeikandl.com

مواجهة قطز للخطر المغولي على مصر

من هم المغول «التتار» ؟

يرجع أصل المغول «ويعني اللفظ : الشجعان» إلى المجموعات التركية الكبيرة التي سكنت أواسط آسيا في جهات متفرقة، وعرفت بأسماء مختلفة ، والمغول اسم لقبيلة تترية صغيرة ينتمي إليها جنكيز خان[1] مؤسس الإمبراطورية التي عرفها العالم في وقت قصير للغاية.

وفي عام ٦٥٦ هـ/ ١٢٥٨ قام هولاكو خان المغولي بالاستيلاء على بغداد عاصمة الخلافة العباسية، وأسرف في سفك الدماء وإشاعة الهلع والرعب والتخريب والتدمير والسلب والنهب بصورة غير مسبوقة في التاريخ كله!!

(١) جنكيز خان – يعني أقوى الحكام – وهو الذي اختار هذا الاسم لنفسه، أما اسمه الحقيقي الذي عرف به في صباه فهو تيموجين ، ومعناه في اللغة الصينية الصلب الخالص، وقد تمكن تيموجين بعد حروب ومنازعات مع أبناء جنسه أن يصل إلى غايته وهي زعامة المغول سنة ٦٠١ هـ وأن يجعل منهم قوة كبيرة ، وبهذه القوة استطاع أن يكتسح البلاد شرقًا وغربًا حتى ترك لأولاده إمبراطورية شملت ما بين بحر الصين والبحر الأسود ، وكانت وفاته سنة ٦٢٤ هـ / ١٢٢٧م.

هولاكو

قال ابن كثير – رحمه الله – : «استهلت هذه السنة – أي سنة ٦٥٦هـ – وجنود التتار قد نازلت بغداد ، وجاءت إليهم أمداد صاحب الموصل يساعدونهم على البغاددة وميرته وهداياه وتحفه، وكل ذلك خوفًا على نفسه من التتار، ومصانعة لهم قبحهم الله تعالى، وقد سترت بغداد ونصبت فيها المجانيق والعرادات وغيرها من آلات الممانعة التي لا ترد من قدر الله سبحانه وتعالى شيئًا، كما قال تعالى : ﴿إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ﴾(نوح: ٤)، وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ﴾(الرعد: ١١).

وأحاطت التتار بدار الخلافة يرشقونها بالنبال من كل جانب .

وكان قدوم هولاكو خان بجنوده كلها، وكانوا نحو مائتي ألف مقاتل إلى بغداد في ثاني عشر المحرم من هذه السنة، وهو شديد الحنق على الخليفة بسبب ما كان تقدم من الأمر الذي قدره الله وقضاه وأنفذه وأمضاه، وهو أن هولاكو لما كان أول بروزه من همدان متوجهًا إلى العراق أشار الوزير مؤيد الدين محمد بن العلقمي على الخليفة بأن يبعث إليه بهدايا سنية ليكون ذلك مداراة له عمَّا يريده من قصد بلادهم، فخذل الخليفة عن ذلك دويداره الصغير أيبك وغيره، وقالوا: إن الوزير إنما يريد بهذا مصانعة ملك التتار بما يبعثه إليه من الأموال، وأشاروا بأن يبعث بشيء يسير، فأرسل شيئًا من الهدايا فاحتقرها هولاكو خان، وأرسل إلى الخليفة يطلب منه دويداره المذكور، وسليمان شاه، فلم يبعثهما إليه ولا بالا به حتى أزف قدومه ، ووصل بغداد بجنوده الكثيرة الكافرة الفاجرة الظالمة الغاشمة، ممن لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر، فأحاطوا ببغداد من ناحيتها الغربية والشرقية، وجيوش بغداد في غاية القلة ونهاية الذلة، لا يبلغون عشرة آلاف فارس، وهم في غاية الضعف، وبقية الجيش كلهم قد صرفوا عن إقطاعاتهم حتى استعطى كثير منهم في الأسواق وأبواب المساجد، وأنشد فيهم الشعراء قصائد يرثون لهم ويحزنون على الإسلام وأهله، وذلك كله عن آراء الوزير ابن العلقمي الرافضي، وذلك أنه لما كان في السنة الماضية - أي سنة ٦٥٥هـ - كان بين أهل السنة والرافضة حرب شديدة نهبت فيها

الكرخ ومحلة الرافضة حتى نهبت دور قرابات الوزير، فاشتد حنقه على ذلك، فكان هذا مما أهاجه على أن دبر على الإسلام وأهله ما وقع من الأمر الفظيع الذي لم يؤرخ أبشع منه منذ بنيت بغداد، وإلى هذه الأوقات[1]، ولهذا كان أول من برز إلى التتار هو، فخرج بأهله وأصحابه وخدمه وحشمه، فاجتمع بالسلطان هولاكو خان لعنه الله، ثم عاد فأشار على الخليفة بالخروج إليه والمثول بين يديه لتقع المصالحة على أن يكون نصف خراج العراق لهم ونصفه للخليفة، فاحتاج الخليفة إلى أن خرج في سبعمائة راكب من القضاة والفقهاء والصوفية ورؤوس الأمراء والدولة والأعيان، فلما اقتربوا من منزل السلطان هولاكو خان حجبوا عن الخليفة إلا سبعة عشر نفسًا، فخلص الخليفة بهؤلاء المذكورين، وأنزل الباقون عن مراكبهم، ونهبت وقتلوا عن آخرهم، وأحضر الخليفة بين يدي هولاكو فسأله عن أشياء كثيرة فيقال إنه اضطرب كلام الخليفة من هول ما رأى من الإهانة والجبروت، ثم عاد إلى بغداد، وفي صحبته خوجة نصير الدين الطوسي، والوزير ابن العلقمي وغيرهما، والخليفة تحت الحوطة والمصادرة، فأحضر من دار الخلافة شيئًا كثيرًا من الذهب والحلي والمصاغ والجواهر والأشياء النفيسة، وقد أشار أولئك الملأ من الرافضة وغيرهم من المنافقين على هولاكو أن لا يصالح الخليفة، وقال الوزير: متى وقع الصلح على المناصفة

(١) ألا فليتنبه الذين يحسنون الظن بالرافضة، وليعلموا أن الشيعة لا عهد ولا أمان لهم، وأنهم أشد الناس خطرًا على أهل السنة، وانظر كتابي «حقيقة الشيعة، وهل يمكن تقاربهم مع أهل السنة؟» لتقف على مدى عدائهم لأهل السنة، وكيف يخططون للقضاء عليهم!!

لا يستمر هذا إلا عامًا أو عامين ثم يعود الأمر إلى ما كان عليه قبل ذلك، وحسَّنوا له قتل الخليفة، فلما عاد الخليفة إلى السلطان هولاكو أمر بقتله.

ويقال إن الذي أشار بقتله الوزير ابن العلقمي، والمولى نصير الدين الطوسي، وكان النصير عند هولاكو قد استصحبه في خدمته لما فتح قلاع الألموت، وانتزعها من أيدي الإسماعيلية، وكان النصير وزيرًا لشمس الشموس ولأبيه من قبله علاء الدين بن جلال الدين، وانتخب هولاكو النصير ليكون في خدمته كالوزير المشير، فلما قدم هولاكو وتهيب من قتل الخليفة هوّن عليه الوزير ذلك فقتلوه، ومالوا على البلد فقتلوا جميع من قدروا عليه من الرجال والنساء والولدان والمشايخ والكهول والشبان، ودخل كثير من الناس في الآبار وأماكن الحشوش، وقنى الوسخ، وكمنوا كذلك أيامًا لا يظهرون.

وكان الجماعة من الناس يجتمعون إلى الخانات ويغلقون عليهم الأبواب فتفتحها التتار إما بالكسر وإما بالنار، ثم يدخلون عليهم فيهربون منهم إلى أعالي الأمكنة فيقتلونهم بالأسطحة، حتى تجري الميازيب من الدماء في الأزقة، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وكذلك في المساجد والجوامع والربط، ولم ينج منهم أحد سوى أهل الذمة من اليهود والنصارى ومن التجأ إليهم وإلى دار الوزير ابن العلقمي

الرافضي وطائفة من التجار أخذوا لهم أمانًا بذلوا عليه أموالًا جزيلة حتى سلموا وسلمت أموالهم.

وعادت بغداد بعد ما كانت آنس المدن كلها كأنها خراب ليس فيها إلا القليل من الناس، وهم في خوف وجوع وذلة وقلة، وكان الوزير ابن العلقمي قبل هذه الحادثة يجتهد في صرف الجيوش وإسقاط اسمهم من الديوان، فكانت العساكر في آخر أيام المستنصر قريبًا من مائة ألف مقاتل، فلم يزل يجتهد في تقليلهم إلى أن لم يبق سوى عشرة آلاف.

ثم كاتب التتار وأطمعهم في أخذ البلاد وسهل عليهم ذلك، وحكى لهم حقيقة الحال، وكشف لهم ضعف الرجال، وذلك كله طمعًا منه أن يزيل السنة بالكلية!!!، وأن يظهر البدعة الرافضية!!!، وأن يقيم خليفة من الفاطميين، وأن يبيد العلماء والمفتيين، والله غالب على أمره، وقد رد كيده في نحره، وأذله بعد العزة القعساء، وجعله حوشكاشا للتتار بعد ما كان وزيرًا للخلفاء، واكتسب إثم من قُتل ببغداد من الرجال والنساء والأطفال، فالحكم لله العلي الكبير رب الأرض والسماء.

وقد اختلف الناس في كمية من قتل ببغداد من المسلمين في هذه الواقعة، فقيل ثمانمائة ألف، وقيل ألف ألف وثمانمائة ألف - أي مليون و٨٠٠ ألف - وقيل بلغت القتلى ألفي ألف نفس - أي ٢ مليون - فإنا لله وإنا إليه راجعون ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم[1].

(١) «البداية والنهاية» (١٣/ ١٨٦-١٨٨) بتحقيقي، ط مكتبة الإيمان بالمنصورة باختصار يسير.

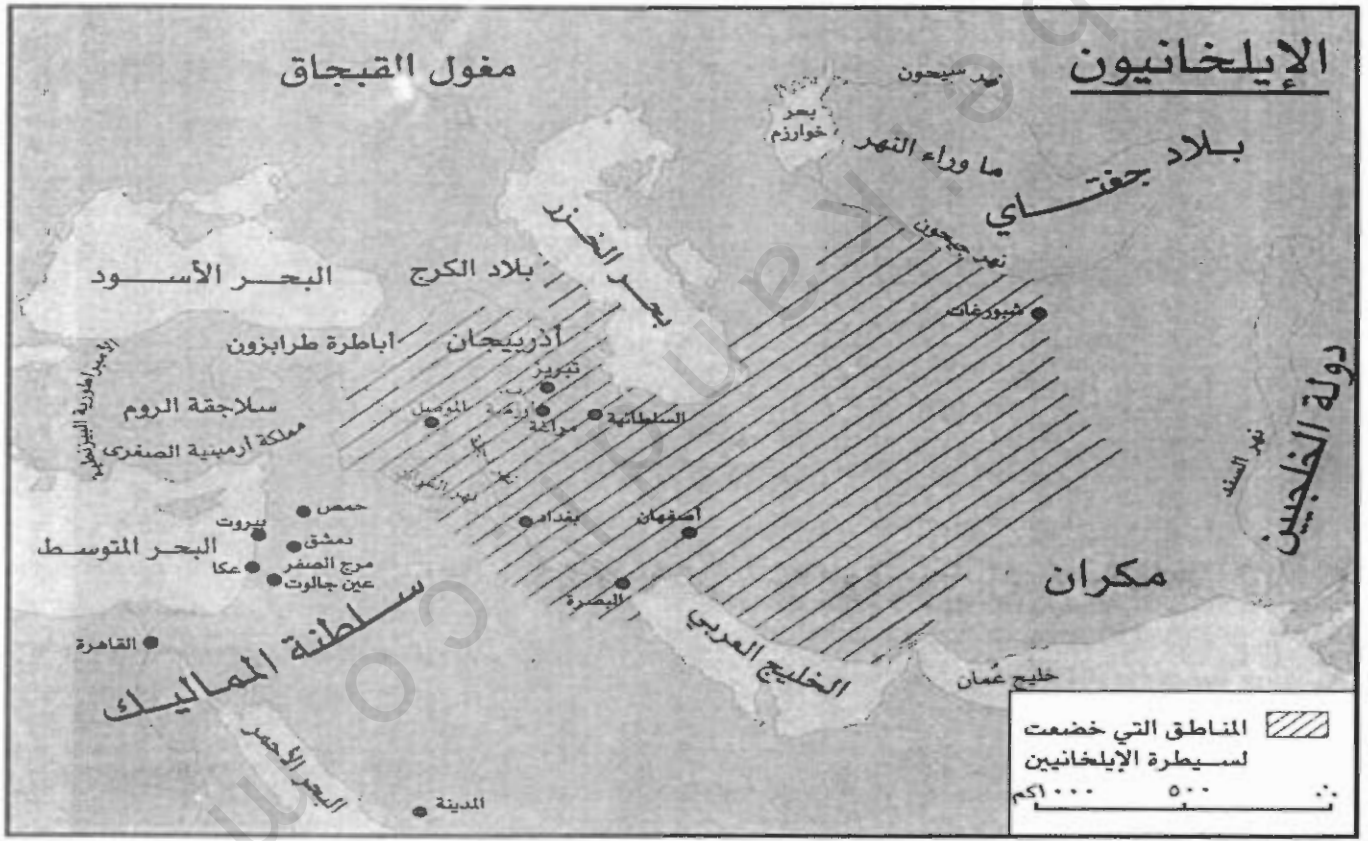

الإيلخانيون
بلاد جغتاي
ما وراء النهر
نهر سيحون
نهر جيحون
بحر خوارزم
مكران
خليج عُمان
الخليج العربي
بحر الخزر
اصفهان
البصرة
السلطانية
تبريز
مراغة
بغداد
الموصل
أذربيجان
بلاد الكرج
مغول القبجاق
البحر الأسود
اباطرة طرابزون
سلاجقة الروم
مملكة ارمينية الصغرى
حمص
دمشق
مرج الصفر
عين جالوت
بيروت
عكا
البحر المتوسط
القاهرة
المدينة
البحر الأحمر
سلطنة المماليك
المناطق التي خضعت لسيطرة الإيلخانيين
٥٠٠
١٠٠٠ كم

خريطة جيوش التتار المشتركة في حصار بغداد

مذابح التتار في كل بلد دخلوها

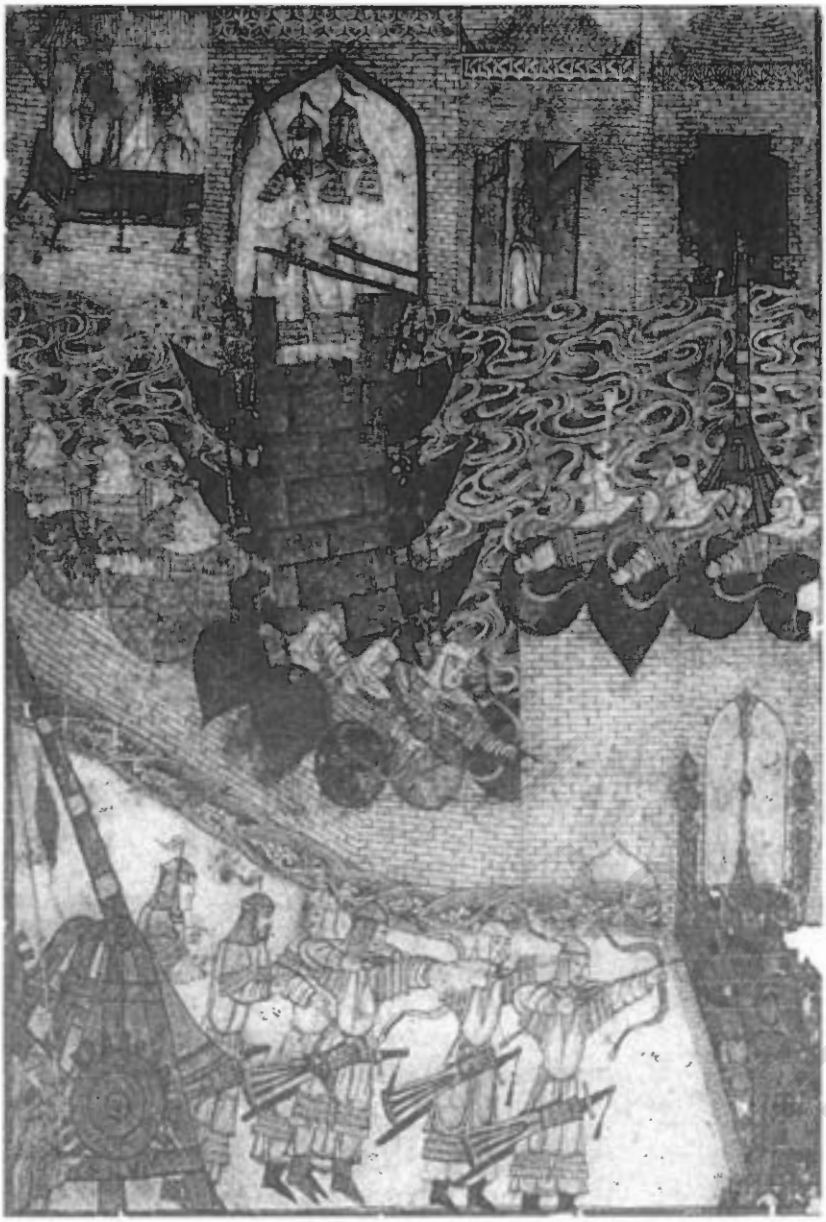

دخول التتار بغداد

ونتج عن سقوط بغداد في أيدي التتار آثار ونتائج عديدة في الحياة الإسلامية ، فالوحدة السياسية للمسلمين أصبحت من الأمور التي يصعب تحقيقها ، بالإضافة إلى أن الثقافة الإسلامية قد منيت على أيدي التتار بخسارة كبيرة حين أتلف المغول آلافًا من الكتب القيمة والمخطوطات النادرة ، وقتلوا كثيرًا من العلماء والأدباء وشتتوا شمل من بقى منهم في مختلف البقاع الإسلامية.

وفي هذه الآونة استشعر أهل الشام ومصر أن خطر التتار قد اقترب منهم ، وأن هذا الموقف يتطلب الاتحاد بين الشام ومصر لمواجهة تلك الأزمة التي لم يشهد المسلمون مثلها حتى ذلك الوقت ، ولكن ملوك الأيوبيين بالشام رأوا أن ينتهجوا في مبدأ الأمر سياسة المداهنة والملاينة للمغول ، لعل ذلك ينقذهم من طغيانهم، فأرسل الملك الناصر يوسف صاحب حلب ودمشق بابنه إلى هولاكو يخطب وده ويسأله أن يساعده على أخذ مصر من أيدي المماليك، لكن هولاكو ردّ عليه ردًا جافًا يأمره فيه بالخضوع والتبعية له دون قيد أو شرط، ثم بدأ هولاكو يتجه بجيشه إلى شمال الشام، فاستولى على حلب وقلعتها ، ومنها إلى دمشق ، فاستولى عليها، فاضطر الملك الناصر يوسف إلى الانسحاب إلى غزة ، وفي غزة استمر جنده ينفضّون من حوله، وانضم بعضهم إلى المماليك ، فاضطر إلى أن يتجه إلى قطيا[1]، وهي قرية على حدود مصر، ولكن المغول بعثوا ببعض رجالهم فأسروه ، وفي ذلك الوقت كان نور الدين علي بن أيبك سلطان مصر يفتقد القدرة على إدارة شؤون البلاد نظرًا لصغر سنه ، وانشغاله باللهو واللعب بالحمام معظم وقته، وأدى هذا الوضع إلى تركيز السلطة في يد نائب السلطنة الأمير سيف الدين قطز ، وعندما بدأ هولاكو بالسير بجيشه نحو مصر للاستيلاء عليها ، وبدأت جحافله تتمركز عند نهر الفرات ، أدرك سيف الدين قطز أن أهل مصر سيواجهون خطرًا داهمًا ،

(١) تقع هذه القرية بين مصر والشام قرب الفرما ، وقد اندثرت الآن ولم يبق إلا أطلالها في الطريق بين القنطرة والعريش.

وأن هذا الخطر يحتاج إلى قيادة رشيدة للبلاد، فقام بخلع السلطان نور الدين علي ، ونصب نفسه سلطانًا للبلاد.

وفي سنة ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠م أرسل هولاكو إلى قطو رسالة تحمل وعيدًا وتهديدًا ويطلب منه أن يخضع له ، ويعترف بسلطان المغول، ومما جاء في هذه الرسالة قول هولاكو لقطز : «وليعلم سلطان مصر أن خيولنا سوابق، وسهامنا خوارق، وسيوفنا صواعق، وقلوبنا كالجبال، وعددنا كالرمال»، فلما وصل هذا الخطاب إلى قطز جمع امراءه وشاورهم في الأمر ، فاتفقت كلمتهم على قتل رسل هولاكو وتعليق رؤوسهم على باب زويلة .

باب زويلة

وفي ذلك الوقت رجع إلى مصر كثير من المماليك الذين خرجوا منها قبل ذلك خوفًا من بطش أيبك بهم ، وأن ينالهم ما نال أقطاي، ورحب قطز بمقدمهم ومنحهم الإقطاعات الجليلة الواسعة ، فصار المماليك بذلك قوة متحدة ، وكان من ضمن المماليك الذين رجعوا إلى القاهرة والقائلين بوجوب مقاتلة التتار ، الأمير بيبرس البندقداري، الذي استقبله قطز مرحبًا سنة ٦٥٨هـ / ١٨٦٠م ، وأنزله بدار الوزارة ، وأقطعه قليوب وأعمالها.

ثم نودي في القاهرة وسائر الأقاليم بالخروج إلى الجهاد، وفي نفس الوقت أخذ قطز يعمل على حشد الجيوش وجمع الأموال اللازمة للحرب، فقام بفرض ضرائب على أهل مصر، إلا أنه قوبل بمعارضة شديدة من جانب القضاة والعلماء، إذ اشترطوا عليه أولًا إحضار ما عنده وعند حريمه، وما عند الأمراء من الحلى وضربها سكة ونقدًا، وإنفاقها على تجهيز الجيش، فإن لم تقم بالكفاية جاز له أن يفرض ضرائب جديدة على الرعية، وأن يقترض من أموال التجار ليستعين بذلك على مجاهدة التتار، وامتثل قطز لرؤى العلماء ولم يشرع في جمع الأموال من المصريين إلا بعد أن أحضر هو والأمراء ما عندهم من الحلى والأموال ووضعوها بين يدي الشيخ عز الدين بن عبد السلام رحمه الله.

وأرسل قطز إلى ولاته على مدن وأقاليم مصر أن يرسلوا إليه المحاربين تمهيدًا للخروج إلى الشام، وبعد أن أكمل قطز استعداداته لملاقة التتار، سار بجيشه حتى نزل بالصالحية، وتكاملت عنده الجنود، فطلب اللقاء مع أمراء المماليك، وتكلم معهم في الرحيل لقتال التتار، فوجد منهم تقاعسًا ورفضوا الرحيل، فقال لهم: «يا أمراء المسلمين، لكم زمان تأكلو أموال بيت المال، وانتم للغزاة كارهون، وأنا متوجه، فمن اختار الجهاد يصحبني، ومن لم يختر ذلك يرجع إلى بيته، فإن الله مطلع عليه، وخطيئة حريم المسلمين في رقاب المتأخرين»، وكان لهذه الخطبة أثرها في تقوية

روحهم المعنوية ، فتحالفوا جميعًا على الجهاد في قتال العدو ودفعه عن البلاد.

وفي تلك الأثناء رجع هولاكو إلى بلاد فارس بسبب وفاة الخان الأعظم مانجوخان، وجعل كتبغانوين نائبًا عنه بحلب، وبيدرا نائبًا عنه بدمشق.

وفي رمضان سنة ٦٥٨هـ/ أغسطس ١٢٦٠م خرج قطز من مصر على رأس الجيوش المصرية، ومن انضم إليه من الجنود الشامية وغيرهم، وطلب من الأمير بيبرس أن يتقدم بفرقة من العسكر ليكشف أخبار التتار، فسار بيبرس حتى لقى المغول عند غزة ، وتمكن بيبرس من أن يلحق بطلائع المغول هزيمة كانت الأولى في تاريخ المغول، غير أنها لم تكن حاسمة، وأخذ بيبرس يناوش العدو ويراوغه ليخفي عنه تحركات الجيش الرئيسي بقيادة قطز الذي سار بجيوشه حتى وافى بيبرس عند عين جالوت[1].

وفي صباح يوم الجمعة السادس والعشرين من رمضان سنة ٦٥٨هـ/ الثالث من سبتمبر سنة ١٢٦٠م التقى الجمعان المغولي والمملوكي في معركة عامة عند عين جالوت، وقد أظهر الجيش المملوكي في هذه المعركة شجاعة نادرة ، وتقول أحداث سير المعركة أن المغول انقضوا على المصريين في بادئ

(١) بلدة بين بيسان ونابلس من أعمال فلسطين ويرجع سبب تسميتها بهذا الاسم ، لما قيل أن داود قتل جالوت في هذا المكان.

الأمر وتمكنوا من تشتيت شمل جناحهم الأيسر، فاضطرب جيش المسلمين، ولكن السلطان قطز استطاع أن يجمع شملهم مرة أخرى، وذلك عندما ألقى بخوزته على الأرض، وصرخ بأعلى صوته: «واإسلاماه»، وقاد الهجوم بنفسه على المغول، فضرب بذلك مثلًا من أمثلة الشجاعة النادرة، وسرعان ما التف حوله جنوده، وحملوا على المغول حملة صادقة، فاختل توازنهم وارتدوا إلى التلال المجاورة بعد أن تركوا قائدهم كتبغا صريعًا في أرض المعركة، وابنه أسيرًا في أيدي المماليك.

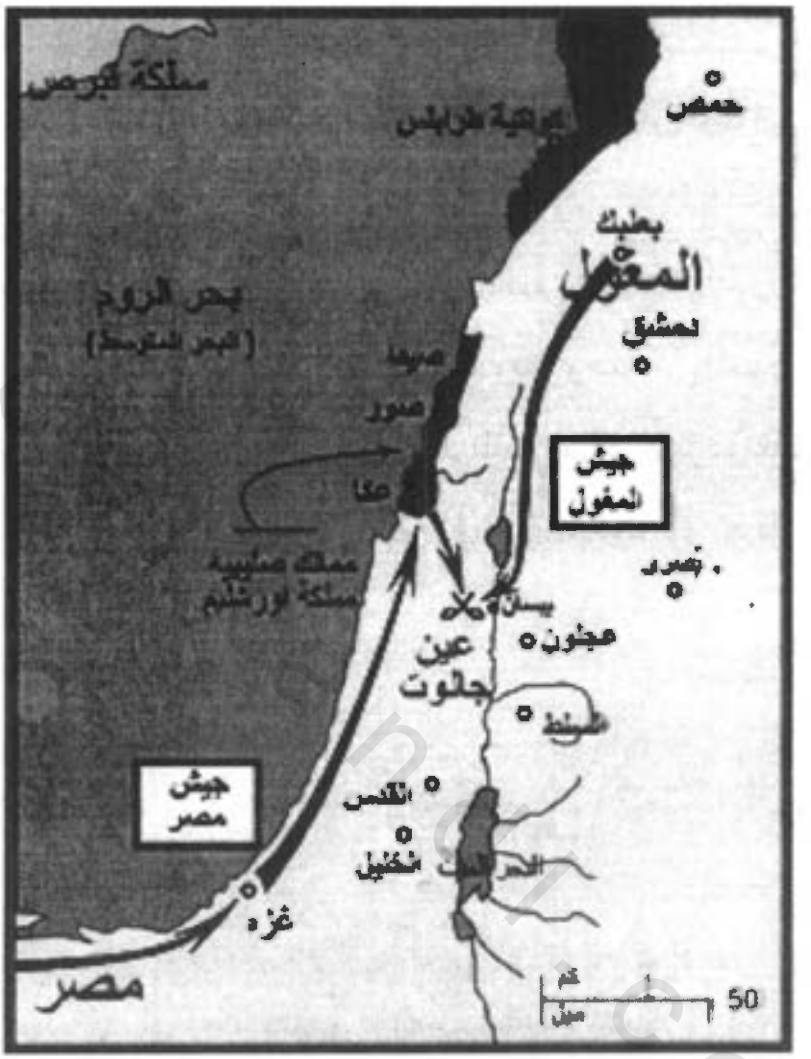

تحرك الجيشين المصري والمغولي في موقعه عين جالوت

ثم عاد المغول وانتظموا مرة ثانية عند بيسان ، فاشتبك معهم المسلمون في معركة ثانية ، واشتدت وطأة القتال، وعاد السلطان قطز يصيح صيحة عظيمة سمعها معظم العسكر وهو يقول : «وإسلاماه» ثلاث مرات، «يا الله ، انصر عبد الله قطز على التتار»، عند ذلك مالت كفة النصر إلى جانب جيش المسلمين ، وكانت هي الهزيمة الأولى للتتار في تاريخهم.

عند ذلك نزل السلطان قطز عن فرسه ، ومرغ وجهه على الأرض وسجد لله شكرًا ، وكان هذا النصر إشارة لخلاص الشام من أيدي التتار ، إذ أسرع ولاة التتار بالهرب قبل أن يقعوا في أيدي الشاميين الذين هبوا للانتقام من المغول، وهذا بعض السر في استيلاء قطز في عدة أسابيع على البلاد الشامية كلها ، حيث أقيمت له الخطبة في المساجد حتى مدينة حلب ومدن الفرات، وقامت في مدينة دمشق – لمّا وصلت أخبار عين جالوت – مذبحة كبرى في التتار، ومن عاونهم على المسلمين من سكانها ، ونخص بالذكر منهم النصارى الذين تهجموا على الإسلام واعتدوا على المسلمين في خلال فترة الاحتلال المغولي للمدينة، ولم يستتب النظام والأمن في هذه المدينة إلا بعد أن دخلها قطز على رأس الجيوش المصرية والشامية الظافرة في السابع والعشرين من رمضان ٦٥٨هـ / سبتمبر ١٢٦٠م.

وأصبح السلطان قطز المظفر بعد موقعة عين جالوت هو سيد الموقف في بلاد الشام كلها من الفرات إلى حدود مصر، فلم يبق أمامه من بقايا البيت الأيوبي سوى بعض الشخصيات العجاف التي كانت لا تستطيع الصمود في وجه قاهر التتار، وكان أن عفا قطز عن الأشرف موسى الأيوبي صاحب حمص وأمّنه ، وكذلك فعل مع الملك المنصور الثاني صاحب حماة ، وأقره على حماة وبعرين ، كما أعطاه المعرة، وكانت بيد الحلبيين ، أما الملك السعيد حسن أمير بانياس والصبيبة – وهو الذي تواطأ مع التتار وانضم إليهم يوم

عين جالوت في محاربة المسلمين – فلم يقبل قطز عذره وأمر بضرب عنقه فضربت في الحال.

ويمكن القول أن انتصار المماليك في عين جالوت قد جعلهم يحصلون على ما كان ينقصهم من مجد لابد منه ، لتثبيت أركان دولتهم، فنسى الناس أصلهم غير الحر، وتناسوا أنهم في حقيقة أمرهم مغتصبوا العرش من سادتهم الأيوبيين ، ولم يعد الناس يذكرون إلا شيئًا واحدًا ، هو أن المماليك أنقذوهم من التتار، وأن بقاء المماليك في الحكم إنما هو ضرورة لابد منها للمحافظة على كيان المسلمين في الشرق الأدنى.

معركة عين جالوت
٦٥٩ هجري
الموافق ١٢٦٠ ميلادي
خط سير جيش المسلمين بقيادة الظاهر بيبرس
خط سير الجيش المغولي بقيادة كاتبغانوين
الجزيرة
الفرات
حلب
حماة
دمشق
بيسان
عمان
القدس
حيفا
يافا
غزة
بيروت
طرابلس
اللاذقية
الإسكندرية
البحر المتوسط
قبرص
نيقوسيا
لارنكا
ليماسول
انطاليا
السويس
القاهرة
مصر